5 صالح ابن عبد الكريم: قال لنا فضيل[1] بن عياض: أتدرون لم حسنت الجنة؟ لأن عرش رب العالمين سقفها.

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: "نور سقف مساكنكم نور عرشه". وقال بكر عن أشعث عن الحسن: "إنما سميت عدن، لأن فوقها عرش الرحمن، ومنها تفجر أنهار الجنة، وللحور العدنية الفضل على سائر الحور، والقربى والزلفى: واحد، وإن كان فى الوسيلة معنى التقرب إليه بأنواع الوسائل" .

وقال الكلبى: "اطلبوا إليه القربى بالأعمال الصالحة" وقد كشف سبحانه عن هذا المعنى كل الكشف، بقوله:{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}[2]فقوله: {أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} هو تفسير للوسيلة التى يبتغيها هؤلاء الذين يدعوهم المشركون من دون الله فيتنافسون فى القرب منه.

ولما كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق عبودية لربه وأعلمهم به. وأشدهم له خشية، وأعظمهم له محبة كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله، وهى أعلى درجة فى الجنة، وأمر النبى ﷺ أمته أن يسألوها له لينالوا بهذا الدعاء زلفى من الله وزيادة الإيمان.

وأيضا فإن الله - سبحانه - قدرها له بأسباب، منها دعاء أمته له بها بما نالوه على يده من الإيمان والهدى، وصلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: "حلت عليه" يروى: "عليه"[3] و "له" فمن رواه باللام فمعناه حصلت له، ومن رواه بـ"على"، فمعناه وقعت عليه شفاعتى. والله أعلم.

* * * * * * *

الباب التاسع عشر
فى عرض الرب تعالى سلعته - الجنة - على عباده وثمنها الذى طلبه منهم وعقد التبايع الذى وقع بين المؤمنين وبين ربهم

قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ

---

(1) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى اليربوعى أبو على الزاهد، أحد العباد. قال ابن سعد: كان ثقة نبيلا، فاضلا عابدا، كثير الحديث. مات سنة (187). له ترجمة فى وفيات الأعيان (415/1)، وشذرات الذهب (316/1).

(2) آية (57) سورة الإسراء.

(3) سبق تخريجه.

فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[1] فجعل - سبحانه - ها هنا الجنة ثمنا لنفوس المؤمنين وأموالهم بحيث إذا يذلوها فيه استحقوا الثمن، وعقد معهم هذا العقد وأكده بأنواع من التأكيد.

أحدها: إخبارهم - سبحانه وتعالى - بصيغة الخبر المؤكد بأداة إن.

الثاني: الإخبار بذلك بصيغة الماضى، الذى قد وقع وثبت واستقر.

الثالث: إضافة هذا العقد إلى نفسه - سبحانه -، وأنه هو الذى اشترى هذا المبيع.

الرابع: أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذه الثمن وعدا لا يخلفه ولا يتركه.

الخامس: أنه أتى بصيغة على التى للوجوب إعلاما لعباده، بأن ذلك حق عليه، أحقه هو على نفسه.

السادس: أنه أكد ذلك بكونه حقا عليه.

السابع: أنه أخبر عن محل هذا الوعد، وأنه فى أفضل كتبه المنزلة من السماء وهى التوراة والإنجيل والقرآن.

الثامن: إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار، وأنه لا أحد أوفى بعهده من الله - سبحانه -.

التاسع: أنه - سبحانه وتعالى - أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد ويبشر به بعضهم بعضا بشارة مَنْ قد تم له العقد ولزم، بحيث لا يثبت فيه خيار ولا يعرض له ما يفسخه.

العاشر: أنه أخبرهم إخبارا مؤكدا بأن ذلك البيع الذى بايعوه به هو الفوز العظيم، والبيع هنا بمعنى البيع الذى أخذوه بهذا الثمن وهو الجنة، وقوله: بايعتم به أي عاوضتم وثامنتم به.

ثم ذكر - سبحانه - أهل هذا العقد الذى وقع العقد، وتم لهم دون غيرهم وهم التائبون مما يكره، العابدون له بما يحب، الحامدون له على ما يحبون ويكرهون، السائحون وفسرت السياحة بالصيام، وفسرت بالسفر فى طلب العلم، وفسرت بالجهاد، وفسرت بدوام الطاعة. والتحقيق أنها سياحة القلب فى ذكر الله ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ويترتب عليها كل ما ذكر من الأفعال، ولذلك وصف الله - سبحانه - نساء النبى ﷺ اللاتى لو طلق أزواجه بدله بهن بأنهن سائحات، وليست سياحتهن جهادا ولا سفرا فى طلب العلم

---

(1) آية (111) سورة التوبة.

ولا إدامة صيام، وإنما هى سياحة قلوبهن فى محبة الله - تعالى - وخشيته والإنابة إليه وذكره.

وتأمل كيف جعل الله - سبحانه - التوبة والعبادة قرينتين: هذه ترك ما يكره، وهذه فعل ما يحب، والحمد والسياحة قرينتى هذا الثناء عليه بأوصاف كماله، وسياحة اللسان فى أفضل ذكره، وهذه سياحة القلب فى حبه وذكره وإجلاله.

كما جعل - سبحانه - العبادة والسياحة قرينتين فى صفة الأزواج فهذه عبادة البدن وهذه عبادة القلب.

وجعل الإسلام والإيمان قرينين فهذا علانية، وهذا فى القلب، كما فى المسند[1] عنه ﷺ: **«الإسلام علانية، والإيمان فى القلب»**.

وجعل القنوت والتوبة قرينين، هذا فعل ما يحب وهذا ترك ما يكره.

وجعل الثيوبة[2] والبكارة قرينتين، فهذه قد وطئت وارتاضت وذللت صعوبتها، وهذه روضة أنف[3] لم يرتع فيها بعد. وجعل الركوع والسجود قرينين، وجعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قرينين، وأدخل بينهما الواو دون ما تقدم إعلاما بأن أحدهما لا يكفى حتى يكون مع الآخر، وجعل ذلك قرينا لحفظ حدوده، فهذا حفظها فى نفس الإنسان وذلك أمر غيره بحفظها، وأفهمت الآية خطر النفس الإنسانية وشرفها وعظم مقدارها، فإن السلعة إذا خفى عليك قدرها فانظر إلى المشترى لها من هو، وانظر إلى الثمن المبذول فيها ما هو؟ وانظر إلى من جرى على يده عقد التبايع، فالسلعة النفس، والله - سبحانه - المشترى لها، والثمن لها جنات النعيم؛ والسفير فى هذا العقد خير خلقه من الملائكة وأكرمهم عليه[4] وخيرهم من البشر وأكرمهم عليه[5]:

قَدْ هَيَّؤُوكَ لأمرٍ لو فَطِنْتَ لَهُ ::: فارْبَأْ بِنَفْسِكَ أنْ تَرْعَى مع الهملِ[6]

وفى جامع الترمذى[7] من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من خاف أدلج،**

---

(1) (حسن) أحمد (134/3)، والمجمع (52/1).
(2) الثيوبة : التي تزوجت فأنفضت بكارتها فأصبحت شيباً
(3) أنف : كل شيء أوله . أي لم يَرْعَها أحد
(4) هو جبريل عليه السلام .
(5) هو سيدنا محمد عليه السلام .
(6) الهمل: المتروك ليلا ونهاراً بلا رعاية ولا عناية.
(7) (حسن) الترمذى فى صفة القيامة: ب(18): حديث (2450)، والصحيحة (954).

ومن أدلج[1] بلغ المنـــزل و ألا إن سلعة الله غالية، ألا ســـلعة الله الجنـــة» قال: هذا حديث حسن غريب. وفى كتاب صفة الجنة لأبى نعيم[2] من حديث أبان عن أنس قال: "جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال ما ثمن الجنة؟ قال: «لا إله إلا الله»وشواهد هذا الحديث كثيرة جدا، وفى الصحيحين[3] من حديث أبى هريرة: "أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة؟ فقال: «تعبد الله ولا تشرك به شـــيئا، وتقـــيم الصـــلاة المكتوبة وتؤتى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان». قال: والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا شيئا أبدا ولا أنقص منه، فلما ولى قال: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هـــذا».

وفى صحيح مسلم[4] عن جابر قال: "أتى النعمان بن قوقل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إذا صليت المكتوبة وحرمت الحرام وأحللت الحلال، أدخل الجنة؟ فقال النبى ﷺ: «نعم».

وفى صحيح مسلم[5] عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله، دخل الجنة».

وفى سنن أبى داود[6] عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، دخل الجنة».

وفى الصحيحين[7] عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أتانى آت من ربى فأخبرنى أو قال: فبشرنى أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ « قال: وإن زنى وإن سرق ».

وفى الصحيحين[8] من حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـــه، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله من أى أبواب الجنة الثمانية شاء».

---

(1) أدلج: بالتخفيف إذا سار من أول الليل. (مختار الصحاح: دلج).
(2) سبق.
(3) البخارى فى الزكاة: ب(1): حديث (1397)، ومسلم فى: الإيمان: ب(4): حديث (15).
(4) المصدر السابق: حديث (16).
(5) مسلم فى الأيمان: ب(10): حديث (43).
(6) (صحيح) أبو داود فى الجنائز: ب(20): حديث (3116).
(7) البخارى فى التوحيد: ب(33): حديث (7487)، ومسلم فى الإيمان: ب(40): حديث (153).
(8) البخارى فى الأنبياء: ب(47): حديث (3435)، ومسلم فى الإيمان: ب (10) حديث (46).

وفى لفظ: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

وفى صحيح مسلم[1]: "أن رسول الله ﷺ أعطى أبا هريرة نعليه فقال: «اذهب بنعلى هاتين، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه، فبشره بالجنة».

وقال روح بن عبادة عن حبيب بن الشهيد عن الحسن قال: "ثمن الجنة: لا إله إلا الله". وروى أبو نعيم من حديث أبى الزبير عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل أحدا منكم الجنة عمله، ولا يجيره من النار، ولا أنا إلا بتوحيد الله – تعالى» وإسناده على شرط مسلم[2]، وأصل الحديث فى الصحيح[3].

فصل

وههنا أمر يجب التنبيه عليه وهو: أن الجنة إنما تدخل برحمة الله - تعالى -، وليس عمل العبد مستقلا بدخولها وإن كان سببا، ولهذا أثبت الله - تعالى - دخولها بالأعمال فى قوله: {بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، ونفى رسول الله ﷺ دخولها بالأعمال بقوله: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» ولا تنافى بين الأمرين لوجهين:

أحدهما: ما ذكره سفيان وغيره قال: كانوا يقولون: النجاة من النار بعفو الله ودخول الجنة برحمته، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال، ويدل على هذا حديث أبى هريرة الذى سيأتى إن شاء الله - تعالى -، أن أهل الجنة إذا دخلوها، نزلوا فيها بفضل أعمالهم". رواه الترمذى.

والثانى: أن الباء التى نفت الدخول هى باء المعاوضة التى يكون فيها أحد العوضين مقابلا للآخر، والباء التى أثبتت الدخول هى باء السببية التى تقتضى سببية ما دخلت عليه لغيره، وإن لم يكن مستقلا بحصوله. وقد جمع النبى ﷺ بين الأمرين فى قوله: «سددوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجو بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته» [4].

ومن عرف الله - تعالى - وشهد مشهد حقه عليه، ومشهد تقصيره وذنوبه وأبصر هذين المشهدين بقلبه عرف ذلك وخبره وجزم به والله - سبحانه وتعالى - المستعان.

---

(1) مسلم فى الإيمان: ب(10): حديث (52).
(2) (صحيح) مسلم فى المنافقين: ب(17): حديث (77).
(3) البخارى (122/8).
(4) البخارى فى الرقاق: ب(18): حديث (6464).